

«عزيزي السيد الرئيس» أحلام مصريين في رسائل بصرية

القاهرة - ياسر سلطان

الجمعة ١٠ أغسطس ٢٠١٢

بابتسامة مرحة ووجه بشوش، يستقبل الفنان السويسري جان لوك ماركينا، رواد معرضه المقام في أتيليه القاهرة، وبإنكليزية مطعّمة بكلمات عربية قليلة، يحاول شرح صوره المتناثرة على جدران القاعة. صورة لصبية يمرحون قرب «ميدان التحرير»، وفي الخلفية مقر «الحزب الوطني» الذي احترق خلال الأيام الأولى للثورة. صورة في شارع جانبي قريب من وسط البلد، وأخرى لسكان جزيرة



«القرصاية» النيلية الفقيرة المطلة على القاهرة. تجمع الصور ليل القاهرة ونهارها، زحامها وهدوءها، انتظامها وعشوائيتها. تناقضات كثيرة لا تخطئها عين الزائر في هذه المدينة الضاحجة. لكن ثمة جامع آخر، عنصر أساسي، ظاهر في كل الصور، وربما لذلك قد يخفى على العين التقاطه مولفًا أكبر لمجموعة صور ماركينا. إنها تلك الوجوه الشابة التي التقاهم ماركينا خلال إقامته في القاهرة، بدعوة من المعهد الثقافي السويسري (بروهلفستيا)، ضمن برنامج للتبادل الفني والثقافي. ومن خلال مقابلاته، لمس ماركينا أحلامًا واستشعر طموحات يأمل الشباب بأن يعمل الرئيس الجديد على تحقيقها. كانت كلمات الشباب ونقاشاتهم أشبه برسائل إلى من حاز السلطة في البلاد. وانطلاقًا من هذه الفكرة، جمع ماركينا عشرات الشهادات من المواطنين، واستقصى رواهم لشكل الدولة المصرية الذي يصبون إليه في المستقبل ويوافق أمنياتهم ويحقق رضاهم عن الوطن الذي يريدون فعلاً أن ينتموا إليه، لا أن يكون مجرد «توصيف» على بطاقاتهم الشخصية التي تحمل صورهم. سجل ماركينا عدداً من هذه الشهادات، فوتوغرافياً أو على شرائط فيديو، ليقدّمها في معرضه تحت عنوان «عزيزي السيد الرئيس».

رسائل ماركينا تحمل من الهموم والأوجاع مثلما تحمل من الطموحات والأمال. نساء يلحمن بالمساواة الفعلية مع الرجل في الحقوق والواجبات، وأقباط يطمنون وطنًا يتسع للجميع من دون اعتبارات الجنس أو الدين والعقيدة، وفقراء يطالبون بتوفير الخبز لأطفالهم. رسائل تطالب بالاهتمام بالتعليم والبحث العلمي، وأخرى بفتح صفحة جديدة مع الجميع.

ويقول ماركينا معلقاً على عمله: «أظهر جيل الشباب رغبة عارمة في حياة أكثر عدلاً، وأثناء إقامتي الفنية السابقة في القاهرة، عام 2007، أنتجت أفلاماً قصيرة عن الناس الذين يعملون ويعيشون في الشوارع والعشوائيات المنتشرة في أطراف المدن، لكن زيارتي الأخيرة إلى القاهرة تزامنت وعدداً من الأحداث المثيرة التي ستؤثر كثيراً في مستقبل المنطقة كلها، لذا قررت التركيز على الشباب الذين يمثلون نحو رُبع سكان مصر».

ولعلّ التغيير الذي شهدته مصر إبان «ثورة يناير»، ولا تزال، يجعل رسائل من هذا النوع تبدو ذات جدوى أكبر، مما لو قُدمت (إذا كان في الإمكان ذلك) قبل سنة أو ثلاث أو خمس. فالشارع ينشغل بنفسه، بهومته، بدل الاستسلام لها كقدر. والأهم، أن ثمة شعوراً مستشرباً بين الناس بأنهم قادرين على التغيير والمطالبة، بصرف النظر عن قرب هذا الشعور من الواقعية. الشعور بأن في إمكانهم مطالبة السلطة عموماً والرئيس خصوصاً، يمكنهم الضغط عليه ومحاسبته. هو الشعور الذي، على الأرجح، ألهم ماركينا، وأعطى معرضه كل هذا الزخم الإنساني و«الحقيقي».

وعلى هامش المعرض، يقمّ ماركينا أيضاً «المدرسة الفنية المتنقلة»، وهو مشروع كان نتاج مجموعة ورش عمل عن الفنون البصرية، صممها لأطفال الشوارع والأطفال المهمشين في مجتمعات العجور، في ألبانيا وكوسوفو، قبل سنة.

جان لوك ماركينا من مواليد 1979، وهو يعيش ويعمل في المنطقة السويسرية التي يعتمد سكانها اللغة الفرنسية. زار البوسنة عام 1998، والنقط صوراً وثقفاً في كتاب، تسرد حكايات الناس هناك، وقسوة الحرب العرقية. ساهم في ورشة عمل في رومانيا، عن حياة الفلاحين والشباب من مناطق مختلفة من أوروبا، ونشر مع آخرين مقالات عن التجارب المشابهة في جريدة صمّمها بنفسه، وتضم نص «خروج الملك» للكاتب يوجين يونيسكو عام 2002. سافر إلى نيويورك في 2005، وأنجز فيلمًا قصيراً عن مركز التجارة العالمي والحرب في العراق، مستخدماً في ذلك أدوات وتقنيات محدودة لا تتجاوز إطار الممكن عبر الهاتف المحمول، إضافة إلى مقابلات شخصية تهدف إلى إبراز وجهات نظر تختلف عن تلك التي تبتناها الصحافة في أوروبا.